

العقل والعقلانيّة لدى المعتزلة قراءة نقدية من وجهة نظر غربيّة

د . نورالدّين الصغير

جامعة الشارقة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الحضارة الإسلامية.

1 - المقدمة :

اهتمّ المستشرقون في العصور الأخيرة بدراسة مذهب الاعتزال وما فيه من التزام بالعقيدة والأصول من خلال نظرتهم في الكون وحياة الإنسان واختياره وحرّيته، ولقد أعجبتهم فكرتهم في أفعال العباد وصار ذلك سبباً لاهتمام الجدد منهم ببحوثهم الدلالية وتأويلاتهم للنصّ وبالأخص الفرنسيين منهم، فاندفع الباحثون يسعون إلى دراسة مذهبهم ونشر كتبهم وتقدير فكرتهم والدفاع عنهم قدر الإمكان وردّ الاعتبار إليهم. ولأجل ذلك، نشرت في العهد القريب كتب تتناول البحث عن ذلك المذهب وعن تاريخ أصحابه ومؤلفاتهم وأفكارهم.

ويمثّل هذا المبحث دراسة تقييمية لنظرة المستشرقين للتراث الفكري الإسلامي وخاصّة المذهب الاعتزالي من حيث منهجيّته العقليّة وآليات بحثه العقلانيّة. وقد وردت مختلف الآراء تباعا عند أبرز الباحثين في الفرق الإسلاميّة ومعالم التّراث الفكري الإسلامي وهم :

- لويس جاردي و أنوتي (Louis Gardet-Anawatti) : مقدمة في علم الكلام،
- هنري لاووست (Henri Laoust) : المذاهب في الإسلام،
- ألبير نادر (Albert Nader) : طريقة المعتزلة الفلسفية،
- فيبارج (Neiberg) : المعتزلة،
- جالاند (Galand) : محاولة في المعتزلة،
- بوعمران (Bouamrane) : مسألة الحرية الإنسانية في الفكر الاعتزالي.

وتعدّ هذه المراجع من أفضل ما كتب من تحاليل ونقد للتراث الفكري الاعتزالي واستعراض لدوره التاريخي في إثراء المنظومة المعرفيّة الإسلاميّة. وقد تمحورت آراؤهم حول المواضيع الآتية :

- نشأة الاعتزال : حيث ناقشوا ظهور المعتزلة الأوائل وزمن واصل بن عطاء، والحديث عن بني العباس الذين ناصروا الاعتزال إلى غاية المتوكل،
- علم الكلام لدى المعتزلة : الأصول الفكرية والعقليّة،
- الفلسفة وتطبيقاتها،
- مسألة الحرية،
- مبادئ المعتزلة،

• أهداف فلسفة المعتزلة،

• المعتزلة والنص القرآني.

وتعدّ هذه القراءات المتعدّدة للتراث الاعتزالي إضافة نوعيّة لما أفرزته المدارس النقدية للفكر الإسلامي وما انتهت إليه من تقييم لفعل العقل والعقلانية (بين الاعتدال والمغالاة) خاصّة وأن هذه الآراء صادرة عن جهة تختلف عن المعتزلة في الدين والمعتقد والتراث وتسعى إلى تقديم صورة موضوعيّة عن المكاسب الفكرية التي حققها الاستدلال العقلي لدى فలాقة المعتزلة الذين يعرفون باعتمادهم المطلق على العقل ورفعهم شعار العقلانية في مختلف محافل الصّراع الفكري والإيديولوجي.

إنّ عملية تقييم التراث الفكري الإسلامي من قبل أعلام الفكر الغربيّين تتصارعها قطبان مختلفان من حيث الآليات والنتائج. والقطبان تحكمهما النسبيّة في الاستقراء من خلال الموروث الفكري والثّقافي الذي يحمله المتصدّي للحكم والنقويم، كما تتصارعهما الأهواء والدوافع الغريزية التي كثيرا ما تحيد بصاحبها عن الصّواب والحقيقة، إلّا أنّ الفائدة تبقى محصورة في الابتعاد عن العدائية وإضمار النية السيئة ومحاولة الخروج بأفكار من شأنها أن تسهم في كشف بعض الخفايا وإثراء المنظومة الحوارية وفق منهجية غربيّة تنأى بنفسها عن التشنيع والإقصاء غير المبرّر. وعلى هذه الأسس اخترنا هذه الدراسة لتكون نموذجا استقرائيا وحكما على ما قدّمته مدرسة الاعتزال.

2 - في أصول المعتزلة :

يجمع هؤلاء الدارسون الغربيّون وعلى رأسهم (هنري لاووست) على اعتبار المعتزلة أوّل تيار فكري عقلاني متكلم وفلسفي، ظهر في القرن الهجري الأوّل على أيدي من يعرفون بالمعتزلة الأوائل وهما : واصل بن عطاء وعمرو

بن عبيد اللذان سلكا طريقا مغايرا في التفكير بعد خلافهما مع الشيخ الحسن البصري في مسألة المنزلة بين المنزلتين وذلك في أعقاب شيوع الجدل حول مرتكب الكبيرة ومسألة أفعال العباد بين التسيير والتخيير، وهي المسألة التي أحدثت جدلا فكريا واسعا وخاضت فيها مختلف الفرق الكلامية مثل: (الجهمية والخوارج والشيعية والماتريدية ..).

ولم تختلف الحادثة الأولى عما لحقها من مواقف، عند (لويس جاردي (Louis Gardet)⁽¹⁾ والخاصة بالاعتزال الذي شكّل فيما بعد ظاهرة سلوكية وفكرية واجتماعية شددت إليها أنظار المؤرخين والدّارسين. فقد عرف هذا التوجه الإيديولوجي منذ بدايات الصراع الأولى في مجتمعي مكة والمدينة، سواء كان ذلك زمن الفتنة الكبرى أوفي معركتي الجمل وصفين وتجسّمت أساسا في الخوارج الذين واجهوا الإمام علي بن أبي طالب. أمّا انطلاقتها الحقيقية والرّاسخة فكانت، وبإجماع هؤلاء المستشرقين، على أيدي بعض المفكرين المسلمين الأوائل الذين اضطرتهم بعض الأسباب والدوافع إلى سلوك منهج مغاير في التحليل والتعليل وتفنيد الوقائع وإصدار الأحكام. إلّا أنّ هذا التجديد الفكري كان قد تمحور حول المسألة السياسيّة (الخلافة والحكم) والمذهبية (مواقف الفرق من تأويل القول في مسائل دينية فكرية تتمحور حول قضايا العقيدة). ولعلّ العامل الفكري التنظيري الذي استحثّ أرباب المذاهب والفرق سيطر على مناهج التفكير والتحليل في هذا المجال، خاصة في مسألة القضايا التي وضعت في المواجهات أهل السنة وأهل الكتاب. وإلى جانب القضايا العقائدية التي شملت أفعال العباد، لم تتخلّف المناورات السياسيّة التي اكتست أبعادا صراعية عمقها شرخ القطيعة التي حدثت بين بني أمية وآل البيت بسبب مسألة الخلافة، خاصة بعد تنازل الأمام الحسن عن الخلافة لمعاوية،

(1) راجع : GARDET Louis :Introduction à la théologie musulmane,-Vrin , - 1948.

الشيء الذي أثار حفيظة عدد كبير من الصحابة والتابعين وأدى إلى اعتزال مجموعات الطوائف السياسية التي كفر البعض منها الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد أن كانوا من شيعته وأتباعه.

وعندما تمكن بنو العباس من الحكم، بعد بني أمية، واستقامت لهم أمور الدين والدنيا، بدأ الفكر الاعتزالي يغزو قلوبهم إلى أن استقل بالخليفة المأمون، ليصبح الاعتزال مذهب الدولة ومقياس انخراط الأمة في مشروع دولتهم في أواخر القرن الثاني للهجرة ومطلع القرن الثالث.

ويقرّر (جالان Galland) ⁽²⁾ أن المعتزلة ينفرعون إلى فرعين رئيسيين، هما :

(أ) فرع البصرة، ومن أبرز من يمثل هذا الفرع: واصل بن عطاء، عمرو بن عبيد، عثمان الطويل، أبو الهذيل العلاف، أبو بكر الأصم، معمر بن عباد، النظام، الشحام، الجاحظ، أبو علي الجبائي، أبو هاشم الجبائي.
(ب) فرع بغداد، ومن أبرز من يمثل هذا الفرع : بشر بن المعتمر، أبو موسى المردار، أحمد بن أبي دؤاد، ثمامة بن الأشرس، جعفر بن حرب، جعفر بن مبشر، الإسكافي، عيسى بن الهيثم، الخياط، أبو القاسم الكعبي.

وللمعتزلة أصول خمسة عليها مدار مذهبهم ومعتقدهم كما يقرّر ذلك (هنري لاووست Henri Laoust) ⁽³⁾، ولا يستحق أي عالم من العلماء منهم اسم الاعتزال حتى يستكمل هذه الأركان الإيمانية بالمذهب ويختزلها في نفسه، وهي: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(2) انظر : Galland = Essai sur les Mo'tazilites - Paris - 1906

(3) انظر : Les schismes dans l'Islam, Paris, Payot 1965

أما شروح هذه الأصول فهي على رأي المعتزلة كالآتي :

- التوحيد : عند المعتزلة يقوم بنيانه على إنكار الصفات، والقول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله تعالى في الآخرة.

وهذا مناف للتوحيد الذي عليه أهل السنة والجماعة، فالتوحيد عندهم يقوم على إثبات الصفات كما يليق بجلال الله من غير تكيف ولا تمثيل ولا تعطيل، وعلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وعلى إثبات رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

- العدل : عند المعتزلة يقوم على إنكار خلق الله تعالى لأفعال العباد، وعلى إيجاب فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى، وعلى ترتيب الثواب والعقاب بمجرد استحسان العقل واستقباحه دون أن يتوقف ذلك على الشرع.

وهذا بلا شك يتنافى مع معتقد أهل السنة والجماعة، فمن معتقدهم أن الله تعالى خالق كل شيء ومن ذلك أفعال العباد، وأنه لا يجب عليه شيء إلا ما أوجبه على نفسه بإيجابه هو، وأن الثواب والعقاب على الحسن والقبح موقوف على الشارع.

- الوعد والوعيد : يرى المعتزلة في أصل (الوعد والوعيد) أنه يجب على الله تعالى أن يفعل ما وعد به وما توعدّ عليه، فيجب عليه إثابة المطيع ومعاقبة العاصي، وإلاّ لزم الخلف والكذب في وعده ووعيده، ولزم منه فساد التدبير.

وهذا مخالف لما يعتقده أهل السنة والجماعة، فهم يعتقدون أنه يجب على الله تعالى أن يفي بما وعد به، لا على أنه من باب الاستحقاق والمعاوضة، وإنما لكونه سبحانه صادقاً لا يكذب في وعده.

ويعتقدون أن عدم معاقبة العاصي لا يعدُّ خلفاً في الوعيد، وإنما هو تكريم وتفضل وإحسان.

- المنزلة بين المنزلتين : عند المعتزلة: أن مرتكب الكبيرة لا يستحق أن يطلق عليه اسم الإيمان والإسلام، لأن في إطلاق ذلك عليه تشريفاً له، وهو ليس أهلاً لهذا التشريف بسبب إعراضه وعصيانته، ولا يستحق أيضاً أن يطلق عليه اسم الكفر والنفاق، لأن أحكام الكفار والمنافقين لا تجري عليه، وإذا انتفى عليه اسم الإيمان والإسلام، واسم الكفر والنفاق، استحق أن يسمى فاسقاً.

3 - مظاهر العقلانية :

أ - علم الكلام والمعتزلة :

يتمثل علم الكلام في إثبات حقائق الإيمان بالأدلة العقلية، بواسطة استكناه المخزونات الدلالية للنص، والانطلاق إلى أقصى حدود التأويل العقلي، رفضاً لما سلكه المشبهة والمجسمة من صور ومفاهيم التشبيه والمعاني المباشرة المستخرجة من كتاب الله. وقد واجه علم الكلام؛ وبخاصة لدى المعتزلة باعتبارهم أبرز التيارات الفكرية في الساحة الإسلامية زمن انتشار الجدل الديني بمختلف أصنافه، مواجهات وتحديات لا حصر لها، جعلتهم ينصبون أنفسهم جنداً للدفاع العقلي عن الإيمان ضد التيارات الفكرية الملحدة والوثنية المغرقة في الشرك والكفر، كما عملوا على عقلنة النص المقدس وحاولوا استنطاق مكنوناته بآليات التأويل، في منأى من النقل النصي والتشبيه، فقالوا بحرية الفرد، والتنزيه المطلق الى حدود التعطيل.

ويقرر الدارسون لهذا العلم أن ظهوره يعود في بداياته إلى القرآن الكريم الذي حوى في توجيهاته الربانية مفردات استعمال العقل ومنها : النظر،

التفكير، التعقل، الإدراك، وهي أفعال مشتقة من كلمة العقل، الفهم، التدبر، القراءة، التمعّن، الجدل، الحوار وكلّ هذه المفردات متعلقة بالمنهج وطريقة الاستقراء والفهم. أمّا الموضوع فمفرداته هي : الكون في مظهره الفيزيائي، والبيولوجي، والفلكي والآثار للماضين.

وإذا كان علم الكلام عبارة عن دراسة "أصول الدين" بمختلف أشكالها وتصوراتها، فإنّ مادته المعرفية يمكن إجمالها في القضايا الآتية :

- الألوهية : وتهتمّ بالبحث عن إثبات الذات والصفات الالهية.
- النبوة : وتختصّ بإثبات عصمة الأنبياء وحكم النبوة بين الوجوب والجواز، ذلك أنّ وجوبها عقلاً، يؤصّل لمذهب المعتزلة، أمّا الجواز عقلاً، فهو مذهب الأشاعرة.
- الإمامة : وتعتني برئاسة العامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عن النبي محمد. وقد تضاربت فيها الآراء وتناقضت.
- المعاد : أي فكرة يوم القيامة ومسائل الحشر والنشر واختلافهم فيه بين الروح والجسم ويدرج البعض ضمن هذا المبحث عناوين فرعية أخرى مثل "العدل" و"الوعد" و"الوعيد" و"القدر" و"المنزلة" كما يقرّر أغلب المستشرقين أنّ مدرسة الاعتزال من الرواد الأوائل في علم الكلام، بل ويذهبون إلى القول بكونها المنشأ الأول لهذا العلم الذي وضع للدفاع عن العقيدة ضدّ هجمات أهل الأهواء والبدع والذين راجت طروحاتهم وأقوالهم في صدر الإسلام وما تبعه من فتن هزّت المجتمعات الإسلامية شرقاً وغرباً. إلّا أنّه في الحقيقة، يعتبر القرآن الكريم أول مؤسس للمنهج الكلامي في الإسلام باعتباره أول من تصدّى للأفكار الزائغة عن اليقين والهداية، فجادل أهل الأهواء والبدع وأفحم الدهريين وصوّب أهل الكتاب فيما اختلط من عقائدهم.

أما النظرة التقويمية الاستشراقية الحديثة للفكر الاعتزالي⁽⁴⁾، فإنها تضعه على محك التجربة الفكرية الواقعة بين الاتجاهات التحليلية المتعاملة مع النصّ القرآني في القرن الأول الهجري، وهي عبارة عن :

- مدرسة النقل في الحجاز،
- مدرسة العقل في العراق،
- مدارس الفرق المتكلمة واتجاهاتهم.

وقد اهتمت هذه التيارات الفكرية بقضايا السياسة الساخنة التي هزّت الساحة الإسلامية منذ بواكير النظر العقلي للقضايا الدينية ونعني بذلك :

- حادثة السقيفة ومسألة الحكم،
- الفتنة الكبرى،
- واقعة الجمل،
- معركة صفين ومسألة نقل الخلافة من المدينة إلى دمشق.

كلّ هذه الأحداث كانت على وتيرة متسارعة لم تمكن العقل المسلم من الاستيعاب الكامل للمفاهيم الخاصة بالرسالة وبحركة التاريخ حتى فاجأته وهو في عنفوانه ودم الجاهلية يغلي في عروقه، فتضارب تعامل العقل مع النصّ القرآني المقدّس فصعبت المقاربة بل واستحالت أحيانا في مجال التفسير.

لقد حاول المعتزلة فكّ هذا اللغز في حقول فهم النصّ المقدّس وما بدا لهم ظاهريا من تناقضات، ففتحوا باب التأويل واستعملوا علم الكلام لتبرير مختلف مقاصدهم الفكرية الدينية والفلسفية. لقد واجهوا مواقف المدارس النصية التي

(4) أركون محمد : معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية - دار الساقي للطباعة والنشر - 2000.

ترمي العقل البشري بالعجز في فهم المقدس والفوز بحقائقه، وسعوا إلى التسليم بأحقية العقل في فهم هذه النصوص والتعامل معها بآلياته البشرية التي وهبت له من لدن الخالق الجبار. إلا أن هذا التوجه الفكري العقلاني أدى بهم إلى تجاوز الحدود التي وضعت أحيانا لقدرات العقل وانتهى بهم الأمر إلى نفي صفات الذات الإلهية وإبطالوا الأزلية ونفوها عن القرآن الكريم وأحقوه بالمحدثات. كما أدت مقارباتهم في مسألة العدل الإلهي بمسؤولية الإنسان عن أفعاله خيرها وشرّها وقالوا إن العقل البشري قادر على تمييز الحسن والقبح قبل السمع الذي قال به الجماعة وبذلك وصل المعتزلة في تحديد مسألة الإيمان إلى وضع العقل قبل الإيمان بالله لا باعتبار ذلك ترتيبا تفضليا بل منهجيا كوسيلة لإدراك الحقائق العليا ولتصحيح الإيمان .

وكان علم الكلام في كل هذه المسائل الوسيلة الوافية لتبليغ مواقف أهل الاعتزال.

ب - الفلسفة :

- من الكلام إلى الفلسفة :

يرى عديد الدارسين للفكر العربي الإسلامي خاصّة في حقل الفلسفة أن ظهور الفلسفة الإسلامية بدأ بعد أن استوفى علم الكلام مآربه وأدى رسالته وأثرى الساحة المعرفية بفنون ونماذج متعدّدة من الرؤى والمقولات اليقينية في العقيدة والإيمان. إن الفلسفة العربية الإسلامية بدأت فعلا عندما نشطت الترجمة وأدرك المسلمون ما انتهى إليه الفكر اللاتيني من مقولات في الحكمة والمنطق، كما انتهى علم الكلام، واستنفذ أكثر أغراضه الفكرية العقائدية والتشريعية.

وتعتبر الفلسفة الإسلامية مصطلحا عاما يمكن تعريفه واستخدامه بطرق مختلفة وأوجه متعدّدة، فمن نماذج استخدامه وفهمه نذكر الآتي :

• في معناه العام على اعتبار الفلسفة مستمدة من نصوص القرآن الثابتة التي تقرّر حقائق تصور الإسلام ورؤيته حول الكون والخلق والحياة والخالق.

• في معناه الشمولي الذي يقرّر جميع الأفكار والتصورات الفلسفية التي ارتقى إليها الفكر العربي الإسلامي وبحثها في إطار مكونات الثقافة العربية الإسلامية والحضارة الإسلامية التي ترعرعت تحت ظل الدولة الإسلامية والتي تشكّل رؤية متكاملة عن الدين والحياة من دون أي ضرورة لأن يكون مرتبطاً بحقائق مسلمة أقرتها النصوص الشرعية.

• أمّا في المعنى الخاص، وهو قليل الوجود، فتقدم الفلسفة الإسلامية على أنها منظومة متكاملة تغطّي كل عمل فلسفي قام به الفلاسفة المسلمون وتراوحت مؤلفاتهم فيه بين الالتزام بالقراءات الفلسفية اليونانية إلى حدّ الغنوصية الصوفية.

• وإذا اعتبرنا تعريف الفلسفة على أنها محاولة بناء تصور ورؤية شمولية للكون والحياة، فإنّ بدايات هذه الأعمال في الحضارة الإسلامية بدأت كتيار فكري في البدايات المبكرة للدولة الإسلامية بدأ بعلم الكلام، ووصل الذروة في القرن التاسع عندما أصبح المسلمون على اطلاع بالفلسفة اليونانية القديمة والذي أدى إلى نشوء رجيل من الفلاسفة المسلمين الذين كانوا يختلفون عن علماء الكلام.

- في اختلاف علم الكلام عن الفلسفة :

يعتبر علم الكلام بمثابة السند الأوّل في الدفاع عن دلالات النصوص الشرعية من قرآن وسنة ضدّ أصحاب الأهواء والبدع، وذلك باستعمال المتكلمين مختلف أساليب الجدل والحجاج المنطقية واللغوية لبناء أسلوب دفاعي جديد لم يألفه العرب في تلك الفترة، ويشهر في وجه من يحاول الطعن في

حقائق الإسلام، أمّا الفلاسفة (التي اتخذت النسق الفكري المشائي) لدى طلائع الفلاسفة المسلمين، الذين تبنوا الفلسفة اليونانية، فقد بنوا مقولاتهم التفسيرية على ما ترجموه من الفكر اليوناني وكان مرجعهم الأول هو التصور الأرسطي أو التصور الأفلوطيني الذي أعجبوا به أيما إعجاب وكانوا يعتبرونه متوافقا مع نصوص مصادر التشريع الإسلامي وروح الإسلام. ويتجلى ذلك من خلال محاولتهم استعمال آليات المنطق لتحليل ما اعتبروه قوانين كونية ثابتة ناشئة من إرادة الله. إلا أن هذا التصور الغالب في البداية ما فتى أن تحول إلى محاولات توفيقية سعى من خلالها الفلاسفة المسلمون إلى ردم الهوة المتأصلة في التصور لطبيعة الخالق بين المفهوم الإسلامي لله والمفهوم الفلسفي اليوناني للمبدأ الأول أو العقل الأول.

ويبرز المعتزلة بصفته من الفرق الإسلامية الأولى التي اعتمدت العقل، ونظرت لآلياته واعتمدته أساسا لنظريتها في المعرفة والاستقراء والاستدلال، بشكل برز مخالفا لما هو سائد في ذلك العصر في استخدام المفاهيم العقلية النظرية منها والعملية. وقد اعتبر المعتزلة العقل الأداة المعرفية الأساسية التي يمكن لها وحدها شرح الظواهر الفلسفية والدينية والاجتماعية والسياسية، لذا أولوه المقام الأول واستخدموه في تنظيرهم في قضايا العقيدة والوجود والأخلاق مثل قضايا (الله والعالم والإنسان والخير والعدل والفضيلة)، وقد شكل هذا العقل آليات الاستدلال الأولية في السجال والجدل الذي انخرط فيه المعتزلة مع سائر الفرق والتيارات السائدة آنذاك.

يعتبر العقل عند المعتزلة بمثابة القوة القادرة على إرساء أفضل نماذج الآليات الفكرية المساعدة في إدراك الحقائق الغيبية (الإلهية والإنسانية)، وهو الأداة التي بواسطتها يمكن تفسير الظواهر والقضايا المادية والمعنوية. يستطيع الإنسان بواسطة العقل التمييز بين الخير والشر أو بين الحسن والقبح، ويشق

طريقه في الخير أو في الشر، وبه يستطيع التمييز بين الحلال والحرام بما يجنبه معصية تعاليم الله والوقوع في الآثام. وعلى العموم فالعقل في هذا المجال يقدم فهما للشريعة الإسلامية خالية من الخرافات والأساطير، ومتماشية مع ما يخدم الشريعة ويجعلها في متناول فهم عقول المسلمين.

هذه العقلانية نقلت المعتزلة من النظر الحجاجي الذي ألفه المتكلمون إلى مجالات التنظير الفلسفي الذي حملته بدايات الترجمة عن الفكر اليوناني والفلسفة الإغريقية. ويذهب (هنري لاووست) في قراءته لتراث الفلسفة لدى المعتزلة إلى اعتبارهم من أول من عرف هذه النماذج من التفكير ضمن أنماط التجديد المعرفي في الإسلام في بداياته الأولى زمن إلتقائه بالغرب عن طريق حركة التعريب التي نشطت في أواخر الحكم الأموي والعصر الذهبي العباسي (5). وقد تنزلت المقولات الفلسفية في حقول التنظير والإدراك لقضايا :

* فلسفة الحرية وتطبيقاتها في أفعال العباد :

لقد سعى المعتزلة لإثبات نظريتهم الخاصة بحرية الإنسان في خياراته وأفعاله بتقرير القضية وتفصيلها إلى بعدين وفق تنظير بو عمران للفلسفة الإعتزالية (6) :

- البعد الأول : مسألة استقراء النص :

وقد اعتمدوا فيه على استنتاج النص القرآني بصفته خير داعم لتأصيل وجهة نظرهم الدينية، فانبروا يبحثون عن كل آيات تؤكد وجهة نظرهم واستلهموا النص القرآني في عرض وجهة نظرهم حول حرية الإنسان وتحديد

(5) هنري لاووست - ص = 89.

(6) انظر / BOUAMRANE, Chik / GARDET, Louis = Panorama de la pensée islamique /
Chikh Bouamrane, Louis Gardet.- Paris : Sindbad, 1984.- p=8.

مسؤوليته في الاختيار أو الإيجاب مستندين إلى النصّ الديني كوسيلة ومنهجهم العقلاني كآلية استدلالية وأداة استقراء واستنباط للأحكام والقواعد والمفاهيم.

- البعد الثاني : العقلانية الفلسفية :

حيث شدّد المعتزلة على أن حرية الإنسان في تصرفاته وخياراته تضعه أمام وجوب استعمال العقل وفهم مقاصد النصّ الملهم لمملكة العقل لينتهي إلى تحمل المسؤولية المباشرة عن كلّ ما سيترتب على أفعاله. وينتهج المعتزلة في هذا السياق الاستدلالي لصياغة نسقهم المعرفي الفلسفي إلى مفهوم العدل الإلهي الذي يجازي على الثواب وعلى العقاب كشرط أساسي لتحمل الإنسان للمسؤولية كما يقرر ذلك (بوعمران) ⁽⁷⁾. ونستنتج أنّه إذا لم يكن الإنسان حرا في خياراته، فكيف يمكن مجازاته أفعاله خيرا وشرّا ؟ ومجازاة لهذا النسق الاستدلالي الفلسفي ذهب المعتزلة إلى القول إنّ الله يستحيل عليه أن يتدخل في شؤون الإنسان بشكل تسلطي وفرض تعسفي مطلق، معتبرين ذلك يتنافى مع حرية الإرادة التي صحبت إعمار الكون وأصلت لفكرة خلافة الإنسان في الأرض. ويتبين إلحاح المعتزلة وتشديدهم على حرية الإنسان انطلاقا من تأصيلهم لقانون محورية العقل وفضله على الإنسان والذي به تميز عن باقي المخلوقات، فهو الملهم للإنسان في خياراته وأفعاله، خيرا أكانت أم شرا.

وفي هذا المجال، يؤكد الجاحظ، الذي كان أحد أبرز أعلام المعتزلة، من خلال مؤلفاته العديدة، على تميز الإنسان عن غيره من الكائنات وأن هذه الحرية تحسم في العدل الإلهي لانسياقها في نسق الاستدلال القاضي والملزم للمسؤولية عن الفعل. كما يعتبر المعتزلة أن مسألة الاختيار في الفعل يصعب أن تتحقق من دون امتلاك هذا الإنسان القدرة على إرادة القبول والردّ، وهذه الأنماط تشكل شعبة هامة في مسألة الحرية الإنسانية من جانب، ومن جانب

(7) Bouamrane - ص : 13.

آخر، تقتزن القدرة الإلهية بالإرادة والمعرفة والعلم لتشكل منظومة الفعل والمسؤولية عنه، وهي أبعاد مرتبطة عضويا بالعقل⁽⁸⁾ ولا تنفصل عنه وعن آليات استدلاله .

ج - محنة خلق القرآن :

لقد أجمع الدارسون لمسألة خلق القرآن ومحنة الحنابلة في مطلع القرن الثالث الهجري على أنها أخطر القضايا المثارة في الجدل اللاهوتي الذي شهده التاريخ الإسلامي في العصرين الأموي والعباسي حيث وضعت الجماعة أصحاب الأخذ بالظاهر وجها لوجه أمام العقول المنتسبة بالفلسفة اليونانية وطرق الاستدلال المنطقي، وقد اختلطت فيها مفاهيم السياسة والدين حتى أنه يمكن اعتبار المحنة نهاية العقل ووأده في محراب السياسة.

ويتلخص رأي المعتزلة في هذه المحنة بأن القرآن مخلوق وليس أزليا وذلك تنزيلا لما تمسكوا به من تطبيقات عملية في اعتماد سلطان العقل كدعامة أساسية لترجيح الصحيح من القول الخاطيء في تفسير الشريعة الإسلامية، ولم يهملوا في استدلالاتهم العقلية النص المقدس بل استندوا إلى أبرز مخرجاته من الآيات القابلة للتأويل لدعم حجبتهم. في هذا المجال، ولتأكيد نظريتهم، انطلق المعتزلة من مسألة صفات الله، فأخذوا بالقول بوحدة الذات الإلهية وصفاتها، وقرروا نفي الصفات الزائدة عن الذات والتي من شأنها أن تبعد صفات التنزيه عن الحيزية المكانية التي تلف الذات بمختلف المفاهيم المادية، وقد توصلوا إلى تحقيق هذه التخريجات والقياسات الفلسفية والمنطقية من خلال استتطاق آيات النص القابلة للتأويل العقلي.

(8) انظر :

NADER Albert = Le système philosophique des Mu'tazila - Beirouth- 1984, p.7.

كما جنح المعتزلة إلى اعتبار النصوص القرآنية تحوي دلالات محكمة ومتشابهة، متنوعة ومختلفة ومتعارضة أحيانا، حيث نجد فيها من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والأحكام التشريعية والقصص والإخبار. كما نجد أيضا المسائل الروحية والدينية. ومن هذا التنوع، استنتج المعتزلة رأيهم في عدم جواز القول بورود التناقض في القول إلى الله، وأمام هذا الخيار المنهجي في تجاوز نسبة التضاد الى الحضرة الالهية، أصبح من الضرورة اللجوء إلى النظر العقلي لتفسير ما ورد في القرآن. فكانت مواقف التفسير الاعتزالي قاضية بمقاضاة مفهوم النص وفق الدلالة العقلية التي تتجاوز به مفهوم الأثرية التي أقرها الحنابلة السلفيون ذلك " إن القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث، أنزله الله على نبيه ليكون علما ودالاً على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام، واستوجب منا بذلك الحمد والشكر والتحميد والتقديس..القرآن يتقدم بعضه على بعض، وما هذا سبيله لا يجوز أن يكون قديما، اذ القديم هو ما لا يتقدمه غيره... وآخر، ونصف وربيع، وسدس وسبع، وما يكون بهذا الوصف، كيف يجوز أن يكون قديما ؟ " (9).

وقد برزت قضية دور العقل في مقارنة النص المقدس وتفسيره لتدفع المعتزلة إلى الخروج من أزمة ما بدا لهم ظاهرا من تناقضات النص المقدس بتأويل تلك النصوص بما يحقق انسجامها مع مقتضيات العقل التي أقرها شيوخ المعتزلة وتفننوا في نظمها ورصد سبل مناهجها التفكيكية والتركيبية لمكونات النص، فيما ذهب خصومهم من الجماعة إلى الأخذ بظاهر النصوص والالتزام بمدلولاتها اللغوية الصرفة من حيث المقصد الدلالي الذي يتماشى وطبيعة التوجيه الديني التشريعي دون الاعتداد بالمقاربات البشرية وتقديم آليات العقل التي لا تستطيع تجاوز معقولها الدنيوي .. وبذلك انتهى المعتزلة إلى نفي

(9) القاضي عبد الجبار : المغني في أبواب العدل والتوحيد.

صفات الذات الإلهية الخاصة بالأزليّة التي أبطلوها حتى لا تشاركه المخلوقات في القدم. ومن هذا النفي نتج تمسكهم بنظريّة خلق القرآن وحدوثه ⁽¹⁰⁾. كما انتهت المقاربة العقلانية للمعتزلة في إطار إثبات العدل الإلهي للقول بالقدر وفعل العبد للخير والشرّ وأنّ العقل البشري قادر على تمييز الحسن والقبح قبل ورود السّمع عن الأنبياء ⁽¹¹⁾. ومن ثمّ، فإنّ المعتزلة تنسب أفعال العباد إليهم، وتقر بأنهم يملكون القدرة والحرية على الفعل والاختيار، ولهذا فقد لقّب المعتزلة بدعاة الحرية في الإسلام، بل إنّ المعتزلة أقرّوا بمقدرة العقل البشري على التّمييز بين الحسن والقبح، والخير والشرّ بعكس الاتجاهات الأخرى التي كانت ترى أنّ الحسن والقبح شرعيّان.

الخاتمة :

من خلال التّعامل مع هذه المؤلّفات، وهي لا تمثّل وجهة النظر الاستشراقية على وجه العموم، إنّما تقيم الدليل والحجّة على أنموذج من تعاملهم مع فكر الفرق الإسلامية من خلال أبعاده العقائديّة وما سادته من إئتلاف واختلاف في التّفسير. كما أنّ هذه القراءة مكنتنا من الوقوف على بعض الحقائق المتعلّقة بالمنهج وآليات التّعامل مع النّصوص المرجعيّة التي اعتمدها فكر الفرق وأعادوا هم قراءتها وصياغة محتوياتها وفق رؤاهم الإيديولوجيّة التي لا تتفصل في كثير من الأحيان عن المنهجية الاستشراقية العامّة.

10) NADER.Albert N, Le système philosophique des mu'tazila, Dar al-Mashreq , SARL, Beyrouth, 1984.

11) Roger Arnaldez (professeur à la Sorbonne, auteur de *L'homme selon le Coran*) dans son article sur « le mutazilisme, théologie de la liberté », paru dans : « *Les textes fondamentaux de la pensée en Islam* », numéro spécial du *Point*, novembre-décembre 2005, p. 35

أما النتائج التي انتهينا إليها في هذه القراءة، فتتمثل في الآتي :

- التّأصيل المنهجي للرؤى الفكرية التي اتبعتها المعتزلة بصفة عامة.
- العقلانية النموذجية في إعادة صياغة الأحكام من خلال تفكيك النصّ المرجعي وإعادة تركيبه.

• إعادة قراءة النصّ القرآني على غير عادة العرب : وقد اعتبر المعتزلة أن الدلالة القرآنية التي نزلت تعبيراتها بلغة العرب التي أوجدت في نفوس متلقيها منذ البداية نظام تفكير كامل قائم على أركان دلالية صاغتها منظومتهم المعرفية الأصولية التي تجاوزت نظمهم الأخلاقية والاجتماعية في مختلف مظاهرها الإدراكية لحقائق الأشياء. ومن خلال إعادة التّشخيص المعرفي للفكر الاعتزالي توصلت هذه القراءات الاستشرافية إلى إقرار ذلك النمط المعرفي والنظام الفكري الجديد الذي خالف فيه المعتزلة السائد في المجتمعات التي أسسها عصر الرسالة حتى أصبحوا قادرين على استيعاب الرسالة. الإسلامية وفق منظور عقلائي رأى فيه البعض مغالاة وتطرفاً، إلا أنّ هؤلاء الكتاب باركوا التوجّه الاعتزالي واعتبروه مؤشّر خير وسلامة للفكر العربي الإسلامي بصفة عامة وفق تعبير (نيبيرج - Neiberg).

• اعتماد القراءة النقدية العقلانية للنصوص القرآنية (في مختلف المسارات التي أخضعوها للتّحليل والقياس والتّدقيق) حتى رأوا في المعتزلة الزّعامه العقلانية العربية الإسلامية. ويبرز هذا المنحى العقلائي في القراءة النقدية لمختلف الدلالات القرآنية التي صيغت وفق المصادر التاريخية.

• تبني منهج علمي موضوعي يقارب النصّ بعيداً عن ظلال الانتماء العقدي. وهو، وإن كانوا يعترفون باختلاف المجالات، لأنّ القرآن ليس تراثاً، فإن حضور العنصر المنهجي في مقارنته يتمثل في إخضاعه للتّحليل النقدي

وضبط ترتيبه وإعادة هيكلة معماره. وبذلك تبقى هذه القراءات حمالة لنسق متناغم يشكل منحى استشرافي خاصّ بالمعتزلة وغيرهم من أرباب الفرق والمذاهب سواء من حيث استعمال النصّ أو البحث في أوجه تأويله وتطبيق هذه المنهجية للبحث عن الدلالة التي تضيء أبعادا جديدة في المنهجية العقلانية.

• فهم التراث الاعتزالي في منظومته الخاصة بالعقلانية المحدثة في مجتمع تشده وجدانيات الجاهلية ويرنو إلى معانقة المقدس القرآني خارج دائرة التأويل وفي منأى عن مخاطر الشطحات العقلية التي كثيرا ما تؤدي بأهلها إلى الزيغ والابتعاد عن الحقيقة التي ترومها الجماعة.

